مطلقا أن تكون حياتهما الزوجية سعيدة هنيئة كما نفهمه ونحسه حين نتصور ونذكر السعادة والهناءة !

آمال ورغبات

الفصل الخامس

وما هذه الآمال والرغبات إلا آمال ورغبات شاب من ابناء الريف شهد بعينيه هذه الحياة الشقية البالغة أقصى مراتب الشقاوة التى يعيشها الفلاح المصري ويحياها هذا المسكين الطيب ، فلم يشأ أن يكتم آلامه ويسكت أنينه بل رأى انه من الواجب ومن الوفاء للوطن وللقرية ومن الاحترام لنفسه ولضميره أن يجأر بالثورة على هذه الحياة التي تتنافي وكل مظهر من مظاهر الانسانية أو الرحمة فى عصر يقولون كثيراً ويرددون انه عصر الحريات وعصر الانسانية ، وما هذه الآمال والرغبات الا مزيج من الرحمة والاشفاق والألم والأمل والشعور الحق بالقومية والصرخة الحارة للأنفة وللعزة الوطنية والدعوة المبتعثة من الجسم ومن الروح ، المتقطعة من اللحم ومن الدم ، الى الهدم ثم الى الانشاء ، فلقد آن الأوان بأن نعمل

معاول الهدم والتقويض في كل مايؤخرنا في سيرنا ويتخذه الغربيون سبة ووصمة لنا ، وفي كل مالا يتفق وصور حياتنا المدنية الغربية المتحضرة ، وفي كل ما يكون نشزاً أو ضعفا أو اضطرابا في لحننا القومي واغنيتنا الكبرى الوطنية ، نعم آن الأوان بألاّ نشفق على قديم لمجرد أنه قديم يخلع عليه القدم صبغة من القداسة وبألا نجبن مطلقا في العمل على تغيير وجهات جميع مرافق حياتنا تغييراً كليا شاملا ، تغييراً لا يفصل بيننا وبين الشرقية بصفة عامة والمصرية بصفة خاصة التي نمتزج بنا لحماً ودماً والتي هي في ماضينا وفي حاضرنا وفي مستقبلنا أيضا والتي هي في عقولنا وفي قلوبنا وفي أرواحنا وفي أحلامنا وفي نزعاتنا وفي ثقافاتنا وفي أعصابنا وفي كل خلية حية من خلايا وجودنا ، تغييراً يبقى لنا الطابع المصري الجميل في مصريته الفرعونية ومصريته العربية ومصريته الحديثة المصفّاة من هذه الحضارات والثقافات الفرعونية واليونانية والرومانية والعربية واللاتينية والسكسونية ، والممتزجة المتفاعلة بهذه جميعاً

نعم ! لا نريد أن نتغير كأمة لها من حضارتها الأولى ومن هذه الحضارات جميعا مجدها وعزها المقدس طفرة واحدة ونقطع كل صلتنا بالماضي الحبيب الينا المتغلغل في كل أعصابنا وحواسنا ، بل نريد أن نوفق ما استطعنا بين الماضي والحاضر والمستقبل ليتألف من هذا جميعا لحن جميل واحد للفخار المصري وللقومية المصرية ، نريد أن تكون « مصر » التي وسعت أرضها الخصبة ونيلها الخالد كل

الحضارات الانسانية جميعاً والتى غذت من تربتها ومن مائها ومن سمائها ومن تاريخها كل الثقافات القديمة العريقة فى القدم ، نريد أن تكون « مصر » هذه لا تتأخر في عصرها الحديث وفي نهضتها الكبرى عن ان تستأنف غذاءها والهامها ووحيها لهذه الحضارات والثقافات الحديثة العالمية ، وان تؤدي رسالتها الكبرى الى خدمة العالم جميعاً مؤتلفة من فن الشرق ومن علم الغرب !

إذن ليس لنا مناص وقد اصطنعنا وسرنا على نهج الحياة الغربية الراقية من أن نهدم كل مالا يستطيع البقاء ومايعوقنا عن أن نكون أمة المستقبل الفاخر كما كنا أمة الماضي الخالد ، وما يؤخرنا عن أن نبعث من جديد مصر العلوم والفنون ، مصر الحكمة والفلسفة ، مصر الحب والخير ، مصر الحق والجمال ، مصر السلام والجلال !

واذا كنا في حاجة الى الهدم لنبدأ فى عملية الانشاء فنحن أحوج الى ان نهدم نظام حياتنا الريفية رأسا على عقب كما يقولون ، فان وصمات العار التي تلطخ فخارنا القومي وسخريات الغربيين التى يتفكهون بها علينا وعوامل التأخر والجمود التي تعرقل خطواتنا الواسعة فى الاصلاح وفى البناء ، كل ذلك جاثم لنا في الريف وملازمنا أبداً في حياتنا الريفية

لقد وقف القارىء على صورة بسيطة من حياة فلاحنا وآلامه وضروب أرهاقه وغبنه ، وعرف ان هذا الفلاح النشط العامل سيد مصر حقا انما يعيش عيشة خشنة قذرة كلها التعسف والاهمال والفقر

والجهل والجمود والحرمان والظلام رغم ما يسكب المسكين من دمه ويقتطع من قلبه ويريق من عرقه ليطعم أبناء مصر وليكسوهم وليبني ثروتهم بينما هو يتقلب على أشواك الخصاصة والمسغبة وبينما هو يمشي بين الناس نصف عريان لا يمتلك الا اللباس الذي يستر به جسمه ، وبينما هو في معظم الليالي يبيت طاويا جائعا هو وأولاده المساكين وزوجه الوفية ، ورغم حرمانه كل حقوقه في الحرية الحقة والتعليم وضروب السلوى والعزاء واللهو وحرمانه حتى حق ابداء شكواه ، ورغم عبث الحكام واستغلالهم لجهله وفقره ورغم تحكم الملاك فيه وفي أولاده ، ورغم تجاهل رجال الحكومات إياه كأنه ليس هو الذي على أكتافه يصلون الى ما يصلون من كراسي الحكم ومراتب الجاه ومنازل السطوة والسلطان !

لا نريد الآن ان نعود الى تصوير تلك الحياة الشقية لفلاحنا المسكين فأنا لنحسب أن فيما أوردنا في الفصول السابقة وفيما حاولنا تصويره من حياته كما نعرفها وكما نشاهدها وكما نشعر بها وكما نعتقد ونؤمن أنها الحق نحسب أن في هذا الكفاية النسبية لمن لا يعرف شيئاً عن الفلاح المصري وعن لون حياته التي يحياها في عصر النور والحريات خصوصا إذا لاحظنا وتذكرنا أننا لا نريد من هذه السطور اذاعة رسالة علمية دقيقة ، فليست هذه السطور كما قلنا في « المقدمة » الا شعوراً حرصنا على تصويره كما هو دون تصنيف

أو ترتيب والانداء باطنيا أحسسنا بقوته وسمعناصرخته فقمنا بتبليغه في سبيل الواجب وفي سبيل الضمير !

والآن ، ترى ماذا تكون تلك المكافأة وهذا الاعتراف بالفضل وبالجميل من حكوماتنا ومن ملا كنا وأغنيائنا لهذا الفلاح المصري النشط فخر الصبر والنشاط والعمل فى العالم جميعا ؟ أتدري ماهي هذه المكافأة وما هو هذا الاعتراف بالفضل وبالجميل ؟ : تعسف وحرمان واستغلال وارهاق واهمال واحتقار ! وهكذا يخرج المسكين أثمار الارض للملاك ثم يحرم هو كفاية عيشه ورزق أولاده ، وهكذا تبنى المدارس من غرس يده ودمه ومن عرقه ومن لحمه ومن شقائه ومن نشاطه ثم يحرم هو التعليم فيها كالشمعة التى تنير للناس لتنطفىء هي ، هكذا تخطط المدن وترصف الشوارع وتنار وتزدان علي حسابه ومن جيوبه بل من قلبه ثم يحرم هو داراً نظيفة وعيشة راضية وحياة محترمة موفورة انسانية !!!

يارجال الحكومة ويا أصحاب الارض والطين ! لقد آن لكم أن تدخلوا الميدان وأن تعملوا بجد للاصلاح وللانشاء ، فلئن صبر الفلاح طويلا في العصور القديمة على الضيم والحرمان والاهمال فلن نضمن ولن تضمنوا هذا الصبر وهذا السكوت فى هذه العصور ولئن كانت سياسة الاستعباد قد حالت بيننا وبين الاصلاح المرجو في العصور الماضية فلقد زالت هذه السياسة ولوظاهريا وأوشكت ان تنفض يدها

من مصالحنا الداخلية الخاصة وأصبحنا الآن مسئولين وحدنا عن نواحي الضعف والاهمال والفساد والخلل في حياتنا الاجتماعية

جودوا يارجال الحكومة على الفلاح المسكين بالتجول فى القرى والعزب والكفور وتنازلوا بالاستماع الى شكاياته التى يبعثها فقره وحرمانه وتكرموا بالنظر وبالتأمل والتفكير فى حياته فسوف تجدون معنا أنه من العار كل العار بل من الظلم وأي ظلم أن يعيش هذا الصنف من الانسان العامل النبيل الطيب الكريم هذه العيشة الوبيئة التي نعرفها وتعرفونها والتي تحرك عيوننا بالدمع السخين وتفجر قلوبنا بالرحمة والشفقة عليه والتى لا نشك مطلقا في أنها تحرك فيكم وتفجر ماتحرك فينا وتفجر وتدعوكم الى نسيان مراكزكم ومناصبكم وجاهكم حينا لتفكروا في وضاعة وحقارة ومسكنة هذه الحياة التي يحياها صنف مسكين ضعيف من الانسان تربطكم به رابطة نبيلة مكينة مقدسة ، لا رابطة الوطنية وحدها ، ولا رابطة اللحم والدم وحدها ، ولا رابطة اللغة والدين والاحساسات والآلام والآمال وحدها ، بل رابطة أسمى وأعلى وأقدس من هذه الروابط جميعاً : رابطة الانسان بالانسان ، رابطة الأخ بأخيه !!

وليس مانعرضه هنا من الآمال والرغبات سوى مطالب متواضعة تدفعنا الى البوح بها والى اذاعتها العدالة البشرية والمبادىء الانسانية التي لا نشك مطلقا أنها سوف تجد لها بين ابناء هذا الوادي الطيب الخصيب المبارك أنصاراً وأعواناً ، إن لم يكن يدعونا اليها شعورنا

القومي وايماننا الوطني ولا نشك مطلقا فى أنكم تشعرون معنا هذا الشعور وتؤمنون معنا هذا الايمان !

وقبل أن نبدأ فى ذكر هذه الرغبات نرى من الحق ومن الواجب علينا أن نسجل حقيقة لامناص لنا من الاقرار والاعتراف بها بين سطور هذه الرسالة ، وهي تلك المحاولة المبدأية التي توجهت نحو التفكير فى شئون الفلاح المصري والريف المصري ، تلك المحاولة المشكورة التى أهدتها الينا حياتنا النيابية والتي تشجعنا على التفاؤل وعلى المضي والسير في واجبنا هذا الذي أخذنا نفسنا به ليتم السعى وتنجح المحاولة ونرى ريفنا وفلاحنا كما نحب أن نراهما !

واذا شكرنا هذا السعى الشريف المبرور الى اصلاح العامل المصري والذي أخذ مظهره في بناء حى جديد خاص بالعمال وفي تشريع خاص يحمى حقوقهم أزاء وتجاه أصحاب المصانع وأصحاب رءوس الاموال ، نقول اذا شكرنا لحياتنا النيابية ولحكومتنا هذا السعى المبرور وهذه الحركة المباركة بخصوص حماية وتنظيم حياة وحقوق فئة عاملة نشطة حية هى احدى فئات وبنايات ودعامات حياتنا الاقتصادية وثروتنا الانتاجية القومية وهي فئة العمال مجاراة لتلك الحركات الشريفة القومية التي قامت بها جميع دول أوربا وأمريكا المتحضرة ، نقول اذا شكرنا لها هذا فكم ننحي عليها باللائمة لأنها عنيت بطائفة كبرى من طوائف الانتاج وأهملت طائفة قد تكون أهم وأكبر وأخطر في كل نواحي ثروتنا وانتاجنا وهى طائفة الفلاحين ، خصوصا اذا راعينا أننا بلد زراعي

واننا نعتمد فى كل ثروتنا ومرافق حياتنا المختلفة على الزراعة وعلى الفلاح بمعنى أدق ، فكان يجب أن نبدأ أولا بطبقة الفلاح ثم طبقة العامل ان عجزنا عن البدء بالطائفتين معا، واذا كان العامل المصري سيوفق في القريب الى تشريع يحمى حقوقه تجاه اصحاب الأعمال ورأس المال ويحدد أجوره وساعات عمله حتي يكون بمنجاة من استغلال واستبداد اصحاب المصانع، ثم الى سكنى مريحة هنيئة في حي خاص وفي نظام جديد يتفق ومقتضيات الحياة الجديدة وروحها ونزعاتها، فكم هو أحرى بالفلاح المصري فخر مصر وسيدها بلا نزاع أن يكون له تشريع خاص يحميه من ظلم ومن استبداد واستغلال ملاكه اصحاب الارض والطين وأن ينص صراحة فى هذا التشريع على وجوب تحديد حد أقصي للأيجار حتي لا يستغل الملاك جهالة الفلاح وسذاجته وفقره وحتي يخافوا الله فيه وفي أولاده وليكن هذا التحديد كما أشار السير « ويليم ويلكوكس » وخبرته بالشئون المصرية وبشئون الفلاح المصري خاصة لا يمكن نكرانها أو الجدال فيها .

أشار هذا الرجل الانجليزى مدفوعا بالعامل الانسانى النبيل لا العامل الجنسى بوجوب عدم زيادة قيمة الايجار عن خمسة أو ستة امثال الضريبة المفروضة على الارض وهي تلك الضريبة العقارية التي تختلف قلة وكثرة

فكم ينقذ الفلاح المصري من وطأة الملاك الذين لا يرحم

إلا أن يسدد لهم المسكين قيمة الايجار سواء أكان من جيبه أم من دمه اذا سن تشريع خاص للايجارات يحمى الفلاح من مظالم الملاك ويمكنه من أن يعيش حياة متوسطة معتدلة انسانية محترمة ، ويحدد هذا التشريع حداً أقصى للايجار وتحدد عقوبة أو غرامة لمن يخالفه ، فاذا فعلنا هذا — ونأمل أن نفعله قريبا — هذبنا انسانية الغالبية الساحقة منا وخففنا عليها بعضا من ارزائها ومصائبها ومظالمها وأتحنا لها الأمل في حياة جديدة مريحة واسعة عادلة !

واذا كنا قد فكرنا في شئون العامل وشرعنا في وضع تشريع خاص له ينظم حياته ويحمى حقوقه فأولى بنا أن نفكر فى شئون الفلاح المصري وأن نشرع في وضع تشريع خاص له اسوة بأخيه العامل ، وأن نضع أيضا نظاما خاصا لسكناه كما نريد مع أخيه العامل ، ولقد آن لنا ونحن في عصرنا هذا وفى عهد أحيائنا القومي العام أن نضع لائحة خاصة لنظام البناء والسكنى فى الريف فمثلا نشترط على من يريد بناء دار له ألا يخرج على قواعد تلك اللائحة بأن يبني داره بالشكل وبالنظام وبحسب الشروط المدونة في تلك اللائحة وان خالف ذلك فيعاقب بعقوبات مختلفة .

ولهذا الغرض نأمل كل الأمل أن تكوّن لجان خاصة فى الدوائر الحكومية يكون من اختصاصها النظر فى هذه المسألة الهامة وأن يعين من الفنّيين والمهندسين في كل مركز من مراكز المديريات يباشر كل واحد منهم ويراقب في حدود مركزه واختصاصه عملية

البناء بهذا النظام الجديد وهو الذي يضع لهم الرسوم والتصميمات التى يجب عليهم أن يبنوا وفقا لنظامها وقواعدها وتكون هذه الرسوم واحدة متجانسة في كل ابنية القرية.

اذا فعلنا هذا — وأملنا كبير فى فعله — جعلنا من القرية المصرية وحدة شكلية متجانسة تريح النفس وترضي القلب والذوق وتذكرنا بأن فى حياتنا المصرية الريفية نظاما وذوقا وتجانسا

ولكنى نسيت ! ليتم لحياتنا الريفية جمالها كما ينبغى يجب أيضا أن يسن في تلك اللائحة على وجوب القاء الردم والسباخ وما اليهما من أوحال وقاذورات فى الجهات القبلية من القرى لا من بحريها وبعيداً عن الدور بمسافة تضمن عدم وصول رائحتها للاهالي

نظن ألا مبالغة فيما نقول ولا اسراف فيما نطلب فأنه قدوجب علينا كأمة تشعر بحيويتها وبكرامتها وبذاتها ان ننظم كل مرافق حياتنا وخصوصا الداخلية منها ، ولا نظن شيئا هو فى أشد الحاجة الى هذا التنظيم مثل حياتنا الريفية التي بقيت على حالها الى الآن كما كانت فى عهود العرب والاتراك والمماليك ومن اليهم !

من واجبنا جميعا حكومة وشعبا ان نجعل من ريفنا جنات خضراء نحج اليها اذا تكدست على قلوبنا هموم الأسى أو أضعفت المدن وملاهيها من ايماننا ، من واجبنا جميعا ان نسير بالريف كما سرنا بالمدن وبكل نواحي الاصلاح التي سرنا بها والخطى التى خطوناها ، حتي لانهرب بذلك من بلادنا الى ربوع الغرب نبحث

هناك عن السلوى ونتفقد العزاء والراحة واللهو ، ومن واجبنا جميعا أن نحبب الينا ريفنا الذي درجنا على أرضه وبين ربوعه الهادئة البريئة بأن نجمله وبأن ننظمه ليكون دائما جميلا أمامنا حبيبا الينا عزيزا علينا ، فانه في حالته الآن وبصورته التى هو عليها فى النظام القديم الذى شهد عصور الاقطاع وعصور السخرة وعصور الاستبداد ينفر كثيرا منا عنه وقد تربينا في أحضانه بين حقوله وقنواته وسواقيه وأجرانه ، وقد نقشت ذكرياته الحبيبة الخالدة فى رءوسنا وفي صدورنا وفي قلوبنا ونمت مع عقولنا وخيالاتنا وأحلامنا ، اذ ماذا نشعر الآن في هذا العصر وريث وربيب تلك العصور القديمة المظلمة والذي يأخذ شيئا فشيئا الى الانسلاخ المعتدل عنها ؟ . كآبة دائمة وقطوب مستمر فلن نشهد في الريف جديدا ، ولن يتغير شعور يومنا عن أمسنا ولن نأمل كثيراً أن يكون غدنا خيرا من يومنا ، حياة ثابتة جامدة لاجدة فيها ولاحياة ، مانراه اليوم نراه غدا ، الشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب والحقول تخضر وتيبس والمواشي تذهب وتجيء ، والفلاحون يعملون فى الغيطان ثم يعودون ، والنساء يحملن جراتهن أو يعملن في الحقول مع رجالهن والاطفال في الحارات يتمرغون في التراب أو يلعبون ! حياة مبقية على ثيابها خلال كل هذه الأجيال المتناسلة والعصور الطويلة ، فالرجل الذى تقابله اليوم قد لا يقابلك الا هو في الغد بنفس الصورة والشكل والوضع الذي رأيته عليها بالأمس واليوم ، والمرأة التى

تشاهدها اليوم في الغيط أو على الترعة هي هي التي قد تشاهدها غدا بنفس ملابسها وهيئتها ، ومشاهد الطبيعة وكل ما حولك من أرض وسماء وماء وشجر هي هي التي شهدتها بالأمس وتشهدها اليوم وستشهدها غداً وبعد غد والى ان يرث الله الارض ومن عليها ، والساقية التي تمر بها الآن وتسمع غناءها وموسيقيتها هي التي مر بها غيرك مئات المرات وهى التي ستمر عليها أنت آلاف المرات لن تتحول عن مكانها ولن تغير من موسيقيتها أو تجدد في غنائها ، والاصوات التى تسمعها اليوم من أفواه الناس ومن غناء الفلاحين ومن الارغول والمزمار والسلامية هي التى سمعتها بالامس وهي التي ستسمعها غدا وغدا وصاحبها اليوم هو صاحبها بالأمس بل صاحبها من منذ أعوام في صوته وفي هيئته

وهكذا حياة الريف عندنا في كثير من بقاعها ونواحيها : جمود لا يعدله جمود وقديم عريق في قدمه ، حياة لا يشعر فيها الغريب أو المدني أو المستنير بجدة فى الشعور أو حيوية في العواطف أو ائتلاف في الميول ، وانما يشعر أنه غريب عما حوله بنزعات فكره وبخواطر نفسه وبآماله وبآلامه وبميوله وبشهواته ، ويكفى كل هذا لأن يجعل الانسان غريبا حقا بكل معاني الغربة !

فكم نحن في حاجة الى ان نجعل من هذا الريف المهمل المنبوذ جنات نحج اليها ونجدد فيها حبنا وعواطفنا ونتغذى منها مبادىء عبادة الجمال !

واذا كنا قد جهزنا بتنظيم حياة السكني في الريف وبتجميله بحيث يتفق مع ما نصبو اليه من مظاهر الحضارة والقوة والنظام والجمال فلن يكون جهزنا بالاكثار من المستشفيات والمصحات وكل وسائل الصحة في تلك الربوع الريفية المحرومة منها اضعف او أخفت! كلنا نعلم أن الامراض العديدة كالبلهارسيا والانكلستوما وأمراض الرمد وما اليها جميعا تغزو فلاحنا المسكين وتهدد حياته وتجعل من لون بشرته ووجهه لونا حائلا باهتا مائلا الى الصفرة والى الذبول والى فقد الدم والحياة وكلنا نعلم ان فقره وبؤسه يحولان بينه وبين تطبيب نفسه ونعلم أنه حين يعجز عن وجود المال يضطر الى الاستدانة ولو بفائظ فادح من جماعة المرابين وقد يضطر المسكين الى بيع ماعنده من غلال أو مواش أو نعاج! كل هذا نعلمه ونشاهده كل يوم ونسمع أنات المرضى ونرى الوجوه الحائلة الباهتة والصدور الشاكية ، فهل لم تبلغ بنا الى الآن الشفقة والرحمة بهذا المسكين الذي يدر علينا الخير والنعمة والخصب من فوقنا ومن تحتنا ومن يميننا ومن شمالنا أن نبنى له المستشفيات التى تنقذه من غزوات أمراضه العديدة ومن فتكها بحياته الغالية علينا جميعا ! لا لأنه مصري تربطنا به رابطة الجنس واللغة والدين والمشاعر والاحساسات وحدها ، بل لأنه أكبر وأشرف من ذلك ، بل لأنه انسان ؟ !

وبهذه المناسبة لا نود أن يفوتنا تسجيل تلك الظاهرة الطيبة التي

أخذت تبدو تحت سماء مصر المحسنة الخيرة خلال هذه الشهور الاخيرة بفضل جماعة من اغنيائنا نسوا جاههم وأنفسهم حينا وذكروا مصر التي من أرضها وتحت سمائها نشأ غناهم ونما وترعرع وازدهر ، نعم يسرنا كل السرور ان برزت هذه الجماعة الفاضلة من رجال المال في مصر تحمل راية الخير والاحسان . وتتزعم وتقود عملية البناء في بلد حديث العهد بالبناء ، والذي يسرنا أكثر من هذا ليس العمل نفسه بل تلك الدلالات التي يمكننا أن نستقيها منه ، فلقد بدأنا نقدر الاحسان وبدأنا نشعر ونأسى لجراحات المعوزين ، وبدأنا نذكر أننا لا نعيش في هذه الحياة لأنفسنا فحسب بل نعيش لأنفسنا وللجماعة وللوجود وللانسانية جميعا ، وبدأت قلوبنا تتفجر عن حب الخير لمن امضهم العوز وذلّهم السؤال وهدهم الفقر ، وبدأنا نفهم ونعرف أن الحياة ليست في جلب المال وتكديسه واكتنازه فحسب ، وانها ليست في بناء القصور وانشاء الرياض وحيازة الخدم وعبادة الطين والمال فحسب ، ولكنها أيضاً في جبر القلوب الكسيرة وفي تضميد الجراحات الدامية وفي تجفيف سيول الدموع الذليلة ، وفي اعلاء شأن هذا الوطن الذي درجنا على أرضه وتغذينا من ثماره وارتوينا من مائه ، وفي تهذيب ناحية من نواحي الانسانية المعذبة بالبناء وبالصقل وبالتجميل

اذن ليست الحياة ان نأكل ونشرب فحسب ، ولكن أن

نشعر وأن نعطف ، أن يكون لنا بطون وأمعاء تحسن ازدراد الطعام وهضمه، وانوف تتلذذ برائحة الطهي ، ولكن أن يكون لنا قلوب تخفق بالحب وبالرحمة ، وأعصاب تتأثر للعوز وللذلة ، ونفوس وأرواح تأنف الضعة وتقدس الكرامة وتعبد الجمال !

نسجل اذن والسرور يملأ نفوسنا ويغمر قلوبنا تلك الحركة المباركة المشكورة فى سجل مصر الحديثة ونأمل من كل قلوبنا أن تفشي ثقافة الخير والاحسان في مصر الخصب والجود والخير والجمال والاحسان ! ونستزيد تلك الحركة المباركة نشاطاً وعملا وسعيا ونأمل أن يكون عندنا فى مصر بين رجال الطين والمال غيرة ومنافسة في عمل الخير والاحسان وفى عمليات البناء ، والانشاء ، كما يغارون ويتنافسون في تكديس الاموال وفي بناء القصور وتوسيع الضياع !

ونريد ان نذكرهم دائما بأن مصر الحديثة فى حاجة الى بعض أموالهم ليتم بعثها واحياؤها ولتقف على أرجلها بين الأمم التي تشعر بوجودها وتتيه بمجدها وفخارها ، وبأن الواجب يقضي عليهم أن يتحملوا نصيبهم من الاصلاح في سبيل مصر وفي سبيل الانسانية جميعا !

ونريد أن نذكرهم أيضا بأن الامم بافرادها لا بحكوماتها ، فالافراد هم تلك الخيوط المنسوجة في ذلك الثوب المزركش المحبوك ، وليست الحكومات الا أداة تقوم بارادة الشعوب ، وليكن لهم من

أغنياء أوروبا وأميركا خير مثال يحتذي اذا كانوا يريدون ان يقوموا بواجبهم ويلبوا النداء الصارخ، ونحسبهم فاعلين !

* * *

تأتي بعد ذلك مسألة التعليم وهي مسألة المسائل بلا جدل ، فلا يزال الجهل أعدى أعدائنا ، ولا يزال هو المستعمر مصر لاحراب انجلترا كما نظن ، وللتعليم في القرى أهمية خطيرة لأنه التعليم الاولي وهو اللبنة الاولى في البناء التعليمى ، وأولى باللبنة أن تكون قوية مكينة ليكون البناء مدعما متينا ، ونحن وان فرحنا وشدنا بتلك المدارس الاولية الالزامية الصغيرة التى خلقتها حياتنا النيابية ، فاننا نحب ان نسجل هنا فى تلك الرسالة الصغيرة أسفنا الكبير على اندثار الكتاتيب القديمة اندثاراً نشاهده يخطو خطواته بالتدريج، فلقد كانت هذه المدارس الحديثة عاملا كبيراً في هدم هذه الكتاتيب فهدمت بذلك تلك الصور والذكريات الجميلة الأولى في فطرتها وفي بداوتها ، وكانت أشد خطورة من ذلك، كانت العامل الاكبر في الغاء التعليم القرآني شيئاً فشيئاً وتلك نكبة النكبات جميعاً !

نعم ! فاننا نسلخ شيئاً فشيئاً من الروح الديني فى مدارسنا الاولى ومن التعليم القرآني وابتدأ يطغي علينا وعلى عقول ناشئتنا الصغيرة تلك السيول الجارفة من التعليم الحديث الذي هو الى القشور أكثر منه الى اللباب والى حشو الادمغة اكثر منه الى تنمية العقول وصقل النفوس ، ومن العجيب حقا فى هذه المدارس

الريفية الصغري ان الصبي يتلقى من هذه القشور مالا يتفق مطلقا وعقله الصبي الناشيء ، فلست أدري كيف يسيغ عقل فى سن السادسة أو السابعة مبادىء التاريخ الطبيعي أو التربية الوطنية ، ان هذه طفرة تشبه الجنون ، ومن اعجب العجب أيضا ان كثيراً من المدرسين فى هذه المدارس الريفية لا يعرفون من هذه العلوم الحديثة الا مافى الكتب المقررة للتدريس ، وكان الله يحب المحسنين !

وكم نأمل ونحن نكتب هذه السطور أن تكون خطواتنا جميعا أكثر اتزانا وريثا واعتدالا حتي لا يتخمنا الطعام فننفجر

نأمل الا يذهب أبناؤنا واخواتنا في التعليم الأولي ضحية هذه البرامج المزوقة كما ذهبنا نحن ضحاياها ، ، نأمل أن نقضي على تلك الفكرة القديمة والتي لا يزال فيها بعض من الحياة الى الآن وهي أن الغرض من التعليم كما أراد السيد « دنلوب » تخريج الموظفين وكتبة الدواوين وسعاة المصالح والتمهد للمشارب والقهاوي والاندية وللأرصفة بما يكظها ويملأها من شبابنا !

ونأمل أن يكون التعليم القرآني هو الاساس الأول لهذه المدارس الالزامية لأن في القرآن الكريم كياننا ووجودنا وقوميتنا كما قال بحق أحد المستشرقين حديثاً !

ونحب هنا بمناسبة التعرض لمسألة التعليم أن نسجل رجاءنا الكبير لوزارة الزراعة بأن تجعل من الفن السينمائى وسيلة الى تعليم الفلاحين الطرق الحديثة في الزراعة التي توصل اليها الفن الزراعي

في أوروبا وأمريكا وتعلمهم بذلك زراعة محصولات جديدة وتعهد الزرع بالحفظ والعناية وتعلمهم بخاصة فن الخضروات والبساتين وتلك الصناعات الزراعية العديدة التي تنشأ مع الزراعة كعمل المربات والزبدة وتجفيف الفواكه وعمل الحبال الى غير هذه الصناعات الزراعية العديدة التي تمخضت عن الفن الزراعي حديثا وتعلمهم بخاصة كيفية حفظ الزرع من آفاته الزراعية التى تفتك به وتقضي على جزء كبير من محصوله

ونأمل مع تقدم الكهرباء أن يكون لريفنا نصيب منها حتى تتعدد صناعاتنا الزراعية وحتى ينتقل الفلاح المصري من طور العمل اليدوي الى العمل الكهربائى ، وهذا الامل وان يكون لا يزال جنينا فانه على كل حال أمل ، وكل الاعمال انما كانت أولا مجرد احلام وآمال !

وكم نحب هنا بهذه المناسبة أن نلفت نظر اغنيائنا وكبار زراعنا الى زراعة الفواكه والخضراوات بدلا من الانغماس فى زراعة القطن والقمح وحدهما فان مصر فقيرة من هذه الناحية فقراً مدقعا ، وهم بذلك انما يزيدون في انتاجنا وفى خلق ربوع للمناظر الجميلة ، وبذلك يمكننا أن نزرع الذهب على حد تعبير الاستاذ سلامه موسى

* * *

وما أحوجنا ونحن بلد حياته في الزراعة الى الجماعات التعاونية الزراعية ، خصوصا بعد ان عملنا كل جهدنا في تصوير حياة الفلاح المصري البائس البالغة حياته اقصى مراتب الفاقة والعوز ، فالحكومات تتجاهل وجوده وهي مع ذلك تعيش عليه ، والملاك يستبد به ويرهقه ويكاد يستعبده ، وكل ماحوله الب عليه ، ازاء هذه الحال المبكية الاليمة كان من المعقول أن يكون له جماعات تشعر بشعوره وتفهم لغة آلامه ، تنجيه من استبداد المرابين وطغيان الملاك وتجاهل الحكومات وعداء الاقدار ومصائب الحياة ، وتنجيه أكثر من ذلك ، من شر جهله فيما يبيع ويشتري !

ولقد ولدت عندنا هذه الفكرة حوالي سنة ١٩٠٤ ثم مشت بعض خطوات وهي في طفولتها الاولى ، ثم عجزت عن السير ولم تقو على الحركة ، ثم عاودت نشاطها في عهدنا النيابي الحديث ، وأخيراً ركنت الى الدعة والى النوم والى الخمول

ولسنا ندري كيف تكون أرواحنا في الزراعة ثم لا تتشرب نفوسنا الروح التعاوني ولا يكون لنا نظام تعاوني منظم قوي منتج؟ أمامنا بلاد التعاون الكبرى مثل دنمرك وألمانيا وفرنسا وانجلتره فلماذا لانبحث عن أسباب نجاحها وأسباب فشلنا ونبني نظامنا التعاوني على تلك الاسس القوية المتينة الخالدة ؟ لاينقصنا شيء سوى الارادة وسوى الشعور بالحاجة الى هذه الجماعات ، ولكن مادامت حكوماتنا تنفض يدها من مساعدة هذه الجماعات ماليا

وأدبيا ومادام أغنياؤنا أو أكثرهم لايعنون الا بأنفسهم والا وراء تكديس الاموال ثم بعثرتها فى مصائف أوربا وفى مشاتيها فسنبقي على مانحن عليه أبد الآبدين ، وسيبقى فلاحنا المسكين نهبة الطامعين وضحية المرابين ولعبة في أيدي اللاهين ، وسيبقي المسكين ضحية جهله فيبيع محصوله بنفسه بثمن بخس أو يبيعه له مالكه بثمن ان كان عظيما فالذي يستفيد من ذلك هو المالك لا الفلاح ، فالملاحظ فى كثير من القرى أن الفلاح ليس له الا محصول الذرة والمحصول الشتوي أما القطن فللمالك فأن لم يسدد منه الفلاح إيجاره فيولي وجهه شطر ماحصل عليه المسكين من الذرة والفلال وان زاد عن الايجار كان الربح للمالك وحده فيكون بذلك الغرم على الفلاح دائما وليس له من الغنم شيء

وغير ذلك فان جماعة المرابين اللصوص تعيش على جهله وعلى عوزه وحاجته ، ومن النادر الا يحتاج اليهم خلال السنة خصوصا في شهور الضنك والجدب ، وهنا يعطونه من جيوبهم ليأخذوا ويقتطعوا من قلبه ويشربوا من دمه

ازاء كل هذا كان من طبيعة العدل أن يكون لنا جماعات تعاونية تأخذ بيد الفلاح المصري من هذه الوهدة وتريه النور وتشعره الراحة والطمأنينة وخصوصا جماعات التوريد والمصارف التعاونية ، ولتنجح هذه الجماعات يجب كما قلنا ان تنزعها أولا الحكومة ولو من طريق الاشراف أو المراقبة أو المساعدة وان نعمل الدعايات

الكافية لبث الروح التعاوني بين الفلاحين بواسطة جماعة من المتعلمين وبواسطة نشرات دورية عن الحركة التعاونية ، ولكن نرى أن تكون الخطوة الأولى في ذلك استشعار الفلاح المصري أولا بفائدة التعاون ، لأنه بدون ذلك لن يقوم للتعاون في مصر قائمة ، وهذا الاستشعار يكون بالتعليم وبالمحاضرات من رجال الزراعة ونشر المعارف الأولى للنظام التعاوني وطرقه فى غرب أوروبا

ويوم يكون لنا هذا النظام يوم نشعر ونؤمن ان الفلاح المصري بدأ يرى بعينيه النور ويتصل بالوجود وبالعالم، وهذا العمل من واجب كل مصري تحركه الشفقة بوطنه وباخيه الفلاح، وهنا نقول لكل مصري ما قال « ولنجتون » لجنوده : « ان مصر تطلب من كل منكم أن يقوم بواجبه » !

ولقد آن الاوان لأن يكون لنا صناعة زراعية فمن العار كل العار ان نكون بلد زراعي ثم نشتري الجبنة والزبدة من يد الغربيين، واذا كان البعض قد قال ان مصر لا تصلح للصناعة فان هذا القول تخدير للاعصاب ويراد به قتل مصر فلسنا نعرف لشعب حياة موفورة صحيحة بدون صناعة ، خصوصاً وان الصناعة الآن هي محور النظام الاقتصادي فى كل ربوع العالم

إذن من أول واجباتنا ان ندعو الى الصناعة الزراعية في مصر كصناعة الالبان وعمل الزبدة ، ويمكننا أن نتخذ « دنمرك » في

ذلك مثالا نحاكيه ، ثم صناعة الحبال بعد ان ندخل في مصر زراعة « القنب » ، ثم عمل المربات وتجفيف الفواكه حتي يكون هناك بذلك مجال فسيح لعمل النساء الى غير هذه الصناعات العديدة التى أشار بها تقرير لجنة التجارة والصناعة في سني الحرب والتي بعثها من مرقدها أخيراً بنك مصر في تقريره القيم الجديد يرفع به صوت مصر الى الحياة والى البعث والى القوة والى الانتاج

نعم آن الأوان أن نخطو في عملنا خطوات جريئة وان نقطع تلك المراحل التي قطعها العالم الاوروبي والامريكي وان نستخدم ثرواتنا المكتنزة المدفونة المجهولة والا نعتمد مطلقا على الزراعة وحدها والا حق علينا الفناء ان عاجلا وان آجلا

والماء ! ليس ماء ما يشرب الفلاح المسكين ولكنه عكارة وطين وميكروبات في مستنقعات مليئة بالجيف والنتن ، وان ترضى هذه الحال السيئة انسانا له قلب وضمير

لقد سمعنا بالمشروعات الحديثة حول تكرير الماء في القرى وحول ردم البرك والمستنقعات ونخشى كل الخشية ان يموت الجنين في بطن أمه قبل أن يظهر الى عالم الوجود ، فقد تعودنا في مصر أن نسمع كثيراً من معمل المشاريع الميتة ثم لا نرى شيئاً

ولعلنا في هذه المرة نرى الجنين يحبو ويرتع ويلعب ويكافح الحياة والوجود

وبمناسبة الماء نريد ألا تفوتنا تلك الملاحظة التي نلاحظها في كل ربوع ريفنا وهي تلك الشكوى الصارخة من سوء التصرف في المياه ، وباليتها تقف عند حد الشكوى والصراخ ، اذن لهان الامر ، ولكن هي أخطر من ذلك فان الفلاح المصري اذا ما عزت عليه المياه وكثيراً ما تعز أخذ يلعن في الحكم المصري وفي الموظفين المصريين وتدرج من ذلك الى الاشادة بالحكم الانجليزي وبالموظفين الانجليز الذين كانوا يحسنون تصريف المياه وتوزيعها بعدل بين الناس ، ولا يمكننا مطلقا أن نلوم الفلاح على هذا لأن في الماء حياته ولان الموظفين المصريين غالبا يتخذون نحوه خطة لا تساعد على الألفة والعدل والطمأنينة ، وهكذا يهدمون ما نبنى ويخمدون هذا الشعور الوطني البحت الحي الذي خلقته في قلوبهم تلك النهضة الكبرى المباركة ! فعسانا نقبل على عهد جديد حي ، وعسانا نتعلم كيف ننظر الى الفلاح وكيف نحترمه ونقدره !

والآن يجب أن نختتم ونقول ان هذه الآمال التي ذكرناها وهذه الشكاية الصارخة التي بحنا بها ليست الا صدى لآمال الفلاح المصري واشكاياته ولجراحاته ، وليست الا جزءا مما يدور بخلدنا جميعا من آمال لانهاض البلد وهدم كل مالا يتفق ونهضتنا ولانشاء جيل جديد يشعر ويضطلع بالمسئوليات الكثيرة الملقاة على كاهله وبالتركات السيئة التي خلفها لنا السلف والآباء وقالوا : « وبعدنا الطوفان » !

نوجه اذن نداءنا الصارخ الى كل مصري حر كريم ، الى كل من تحركه ولو ابسط عوامل الرحمة والانسانية ، ان يوجهوا أنظارهم جميعا الى الريف المصري النائم المنبوذ ، فهناك الفقر فاغر فاه ، وهناك الجهل جاثم في مربضه وناشر أجنحته السوداء ، وهناك ضروب البطش والجور على أحدث طراز ، وهناك تلك البقية الباقية من عصور المماليك المناكيد ، هناك يجب أن نبدأ بعملية الهدم لنشرع في عملية البناء ! . .

* * *

الفلاح المصري يناديكم يا أنصار « حقوق الانسان » !